

عولمة اللايقين ولا يقين العولمة* : عطب في النظام والمعنى

عبد الغني منديب⁽¹⁾

مقدّمة

ترنو هذه الورقة إلى المساهمة في إنتاج المعنى بخصوص الأزمة الصحية التي يعرفها العالم اليوم باسم فيروس كورونا ومتحوراته، ولاشك أن الكتابة عن هذه الظاهرة التي مازالت مستمرة لحدود كتابة هذه السطور تنطوي لامحالة على مخاطر السقوط في بعض المنزلاقات الابستمولوجية، بيد أننا حرصنا، ما وسعنا الحرص، على التسلح بالحدز والتريث الضرورين لكل مساهمة تنشُد الموضوعية وتتنكب عن كل ذاتية صريحة أو مضمرة سوى لضرورة ظاهرة. ففي انتظار توفر الابتعاد الزمني الضروري لفهم هذه الظاهرة وتجلياتها، أنتجنا هذا النص الذي يمكن أن يصبح بدوره بعد بضعة سنوات أو عقود مثنا للتحليل باعتباره خطابا سوسولوجيا وفلسفيا حول هذه الأزمة الصحية. وفيما يلي تفسيرنا لهذا الوضع الذي يبقى بطبيعة الحال محكوما بابستميته، بالمعنى الفوكوي (نسبة إلى ميشال فوكو) للمفهوم.

يمكن التمييز في نظري بين وجود ثلاث مراحل في صلتها بالحالة الوبائية التي يشهدها العالم اليوم:

- مرحلة ما قبل جائحة كوفيد 19 المستجد ؛
- مرحلة أثناء تفشي الوباء وانتشار العدوى ؛
- مرحلة ما بعد الجائحة ونهاية الوباء.

* قدمت هذه الورقة في إطار الملتقى الافتراضي الدولي الأول : "المجتمع والجائحة".
(1) أستاذ التعليم العالي في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.

فأما مرحلة ما قبل الجائحة، فقد ولت إلى غير رجعة، زمن انقضى ولن يعود. ولست بقولي هذا أخط في الرمل أو أقرأ الطالع في أوراق اللعب، وإنما أستند في إقراري إلى كون العودة إلى ما نسميه بـ "الوضع الطبيعي" لن تكون عودة، وإنما دخولا إلى "وضع طبيعي" جديد مغاير "للوضع الطبيعي" السابق، أي : قبل مرحلة الجائحة، وذلك لا لشيء سوى أن نظرتنا للأشياء ستتغير من جراء هذه التجربة الصادمة، وتغير معها علاقاتنا بذواتنا وبالآخرين وبالأشياء المحيطة بنا.

وأما المرحلة الثانية فهي ما نعيشه منذ دخولنا للحجر الصحي، والتي لازالت مستمرة إلى حدود كتابة هذه السطور، مرحلة اكتشفنا فيها جميعا وعلى حين غرة العطب الذي أصاب نظام العالم ومعناه فجأة ودون سابق إنذار، فغدا هذا العالم أشبه ما يكون بسفينة عملاقة توقفت محركاتها الرئيسية وسط محيط هائج، ولم يبق من حركتها سوى بضع مروحيات تسمح لها بالطفو فوق سطح الماء لتمنعها من الغرق. ولم يعد الركاب يتساءلون كما في البداية عن سبب العطب، وإنما يتساءلون متى سيتم إصلاحه، لتستأنف السفينة مسيرتها. والقلة من الركاب فقط هي التي تتساءل إن كانت هذه العبارة الضخمة المثقلة بالركاب والبضائع ستلتزم بخط سيرها متى استأنفته، أم ستغيره وتحيد عنه. وهي مرحلة تدور حولها بوليفونية صاخبة تجمع بين أصوات مهولة، وأخرى مهونة وثالثة حذرة ومتوجسة، ورابعة مندفعة وأحيانا متربصة.

وأما المرحلة الثالثة أي: ما بعد الوباء فهي المرحلة التي يكتنفها الغموض ويلفها اللايقين، وتستقيم حولها كل الأسئلة الفلسفية والسوسولوجية.

وسوف أفصل القول فيما سيأتي من هذه الورقة في هذه المراحل الثلاث التي يخترقها كلها اللايقين، هذا اللايقين الذي ارتفع منسوبه لدرجة بتنا معها لا نضيق ذرعا به، بل غدونا نتعايش ونتجاوز معه.

مرحلة ما قبل كوفيد 19 المستجد

لابد أن نعود من جديد إلى وضعية الرصد لنضع اليد على ثلاثة أعطاب أساسية أحسبها كالتالي :

العطب الأول وهو ما أسميه : عولمية الوباء والحجر الصحي المرتبط به.

لم يحتج الوقت أكثر من بضعة أسابيع ليخضع نصف البشرية أو ما يزيد عنه للحجر الصحي لتلافي خطر تفشي العدوى واتساع دائرة الإصابة بالفيروس. وقد خلق هذا الوضع حالة غير مسبوقة في تاريخ البشرية : إذ باتت هذه الأخيرة تهاب كلها، في الوقت نفسه الشيء نفسه، وغدت مرحلة ما قبل استفحال الوباء مفتقدة وبعيدة المنال. هل سيعود الناس من جديد إلى التقارب الاجتماعي، كما دأبوا عليه دائماً، بما يقتضيه من تلامس بالأيدي وبالوجوه والأذرع، في طمأنينة ودون خوف أو توجس؟ هل ستكتظ الملاعب والشواطئ والأسواق المزدحمة بالناس من جديد؟

لا أحد يعلم علم اليقين حتى وإن كنا نأمل ونتطلع كلنا إلى ذلك، بيد أن الأمل والتطلع ليس سوى وجهين من وجوه اللايقين الذي ألفناه واستأنسنا بوجوده بيننا، ولم يعد كما كان في مرحلة ما قبل الوباء يزعجنا ويقض مضاجعنا! حيث كانت البشرية خلال مرحلة ما قبل الجائحة تتبجح بتفوقها التكنولوجي الذي طوع الطبيعة وأخضعها، ويكفي أن نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر كيف طلع علينا بعض العلماء في السنوات الأخيرة بإيعاز من مؤسساتهم الضخمة والقوية التي تختبئ وراءهم مبشريننا بإمكانية وشيكة للعلم والتقنية بوضع حد للموت كظاهرة بيولوجية ؛ ذلك الموت الذي أحسبه في نزعاتي الذاتية أعدل قسمة بين البشر وليس العقل كما ذهب إلى ذلك ديكارت.

إن أول عطب من هذه الأعطاب الثلاثة هو ذاك الذي أُلْمَ باشتغالية المجتمعات البشرية، وجعلها تبتعد كل يوم منذ إقرار إجبارية الحجر الصحي إلى هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه الكلمات عن نظام معولم تسود فيه الليبرالية ويحكم فيه النمو الاقتصادي ويُشرع فيه الربح السريع، ويفصل بين الناس فيه مبدأ بقدر ما تملك تساوي.

² لا بد من التمييز هنا بين نوعين من اللايقين : اللايقين الفعلي الذي كان موجودا في مرحلة ما قبل الجائحة، فهو لايقين فعلي ما دمنا لم نكن ندرك إمكانية حدوث الجائحة، وكان الجميع يعتقد بشكل واع أو غير واع أن خضوع نصف البشرية للحجر الصحي شيء غير ممكن وغير منتظر : واللايقين السيكولوجي، أي : كإحساس وشعور وهو ما يطبع المرحلة التي نعيشها اليوم، أي : مرحلة انتشار الوباء وارتفاع نسبة المصابين بالفيروس، وقد يبقى سكولوجيا فقط إذا استطاعت البشرية اكتشاف اللقاح في المستقبل القريب والقضاء على الفيروس نهائيا كما فعلت في السابق مع أمراض وبائية أخرى.

وأما العطب الثاني فهو عطب التوقع والاستباق ؛ حيث رأينا جميعا كيف داهمت الجائحة المجتمعات البشرية وكيف استخف منها في البداية عدد من قادة الدول المصنعة والغنية، واعتبروها مجرد رشحة برد سرعان ما تزول، ليتراجعوا عن مواقفهم بعدما اكتسح الوباء مجتمعاتهم، وشرع في حصد الآلاف من الأرواح، وبدأت الأنظمة الصحية في هذه البلدان تئن تحت وطأة الطلب على المستشفيات والبنيات الصحية التي أصبحت عاجزة عن احتواء هذا الوضع الوبائي غير المسبوق والمتوقع.

وأما العطب الثالث فهو عطب المعنى.

من ذا الذي يستطيع اليوم على وجه الدقة واليقين تفسير هذه المفارقة العجيبة التي تتجلى في كون المجتمعات التي سجلت أعلى نسب للوفيات بعشرات الآلاف، هي الدول المصنعة والغنية : مجتمعات الوفرة والرفاه ذات البنيات الصحية الصلبة والتراكمات العلمية الوفيرة؛ ففي حين أن المجتمعات التي كانت تدعى زمن مرحلة ما قبل الجائحة بالمجتمعات النامية: مجتمعات الندرة والخصاص هي التي سجلت أدنى حالات ونسب الوفيات². وكيف أن البعض من هذه الدول التي تسير في طريق النمو طريق لا أول له ولا آخر كيف اضطرت على مرأى ومسمع من الجميع إلى الاقتراض الخارجي لمواجهة تكاليف الأزمة تحولت فجأة إلى دول مصنعة ومصدرة للكمامات وأجهزة التنفس الاصطناعي التي غدت أعز ما يطلب في هذه الظروف وأصبحت هذه الدول نماذج ناجحة يحتذى بها في المحافل الدولية وحجة يحاجج بها المعارضون على الحاكمين في الأنظمة الديمقراطية.

وقد تقفيت أثر كل التفسيرات على قلبها التي حاولت إضفاء طابع المعنى والتماسك المنطقي على هذا الوضع المفارق فوجدتها تبريرات هي أقرب إلى الذرائعية منها إلى البرهانية.

³ أقصد هنا عدد الوفيات وليس الإصابات بالفيروس ؛ إذ يقابل عدد الوفيات في بلدان الضفة الجنوبية لحوض البحر الأبيض المتوسط الذي يعد بضع مئات فقط، عشرات الآلاف من الوفيات في الضفة الشمالية له، كإسبانيا وإيطاليا وفرنسا.

مرحلة الأثناء أي : زمن استرسال العدوى وتفشيها

قد يخيل للقارئ أن هناك خلطا بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية، والواقع أنه ليس خلطا وإنما هو تداخل للاعتبارات التي سوف أوجز فيها القول على النحو التالي :

ألف : من الناحية الابستمولوجية فإن التفكير في المرحلة الأولى أي: مرحلة ما قبل الجائحة قد تم ويتم من داخل المرحلة الثانية ،أي: مرحلة الأثناء التي مازلنا نتموضع داخلها الى اليوم³؛

باء : إن الأوضاع والوقائع التي كانت سائدة خلال مرحلة ما قبل الجائحة لم تكن تنطوي على الدلالات نفسها التي نراها اليوم من داخل الإبدال الوبائي ومرجعيته الإستيمية :

وحيم : لأن التاريخ البشري كما أدركه شخصيا ليس دائما تاريخ قطائع حادة، وإنما هو تاريخ تواصل وتوارد وامتداد.

بيد أن هذا لا ينعني من الدفع بفكرة مؤداها أن ما يسم هذه المرحلة الثانية أي : مرحلة الأثناء هو سيادة اللايقين في الإقرار والعسر في الفهم والتريث الحذر في الاستطلاع والتنبيؤ. وإنني لأستند في قولي هذا إلى رصد ومحاولة تفكيك هذه البوليفونيا الصاخبة التي تعج بها مواقع التواصل، هذه المنصات الافتراضية التي أصبح يستعملها الوزير والغفير؛ حيث إنه في جوف هذه المواقع الاجتماعية تصدح الملايين من الأصوات التي تنتج وتعيد إنتاج الآلاف من الخطابات المتناقضة حول الجائحة، فعلى سبيل المثال لا الحصر، ولضرورة الإيجاز وتجنب الإطالة سوف نقف فقط عند التفسيرات التي يدفع بها لشرح ظهور الوباء وانتشاره.

فهنالك من يرجع هذا الوضع الوبائي إلى الحرب الاقتصادية التي تدور رحاها بين القطبين الصناعيين الكبيرين وهما الصين والولايات المتحدة الأمريكية، ويرى أن أحدهما قد خلق الفيروس في أحد مختبراته المتطورة ليشن حربا بيولوجية يضعف بها غريمه الاقتصادي.

وهناك من يرى أن الأمر لا يعدو كونه مجرد حادث تسرب غير مقصود لهذا الفيروس المصنع.

⁴ أيا كانت الأحوال التي ستسفر عنها مرحلة ما بعد الجائحة، فإن هذا النص علاوة على أنه يبقى محكوما بإستيميته، فإنه سيكون أيضا شاهدا تاريخيا على زمنه في مكانه.

وهناك من يرى أنه جرثومة طبيعية غير مصنعة ابتكرتها الطبيعة للدفاع عن نفسها ضد الاكتظاظ السكاني والمضار التي ألحقها هذا الأخير بها.

وهناك من يرى أنها مؤامرة محبوكة لتخفيض عدد السكان، والتخلص من المسنين المعمرين الذين أرهقوا صناديق التقاعد وأنظمة الرعاية الاجتماعية.

وهناك من يرى أنها مرحلة لتهيئ البشرية للإقبال على اللقاح المخلص والمنتظر، الذي سيعود بأرباح طائلة على مكثفيه ومصنعيه وتجاره.

وهناك من يرى أن هذا المصل المرتقب سوف يسمح للإمبريالية بأن تحكم قبضتها على الشعوب لتستعبدتها.

وهناك من يرى أن هذه الجائحة هي عقاب غيبي لتنبه الخليقة على إغراقها في الخطيئة.

ولا أحسبني فيما عددته قد حصرت كل أنواع هذه الخطابات التي تدعي التفسير، لا لأنها لا تحصى لكثرتها، وإنما لأن المقام لا يسمح بالإحاطة والشمول.

وما يهمننا هنا أي : في هذه المرحلة هو حالة اللايقين التي بثتها هذه البوليفونيا، خصوصا إذا علمنا أن كل هؤلاء " المتكلمين " في أسباب الجائحة ودواعيها لا يألون جهدا في الدفاع عن آرائهم وتسفيه آراء المخالفين .

وقد خلق هذا الوضع رجة بات من جرائها من العسير الاطمئنان إلى رأي واحد ووحيد، ومن اليسير الركون إلى اللايقين في انتظار الذي يأتي والذي لا يأتي.

مرحلة ما بعد الوباء³

إن ما يميز هذه المرحلة هو أن كل الأسئلة الفلسفية والسوسيولوجية تجوز وتستقيم بخصوصها :

أسئلة الماهية. أي : كيف ستكون هذه المرحلة ؟ وما الثابت والمتحول فيما بالمقارنة مع المرحلة الأولى والثانية ؟ أي : بالمقارنة مع الماضي المفقود والحاضر المشهود.

أسئلة الكرونولوجيا، متى ستحل وتهل هذه المرحلة ؟ أي الأمد القريب ؟ أم في الأمد المتوسط ؟ أم في الأمد البعيد؟

أسئلة الإيطوس، أي : كيف ستصبح أنماط تفكيرنا وسلوكنا ؟ وكيف ستغدو نظرتنا إلى الكون ؟ هل سنصبح أكثر إيمانا بالغيب ؟ أو أقل تقيدا بالأحكام والتعاليم ؟ هل سنصبح أقل تفاؤلا بالغد ؟ أو أكثر توجسا من المستقبل ؟ كيف ستصبح طباعنا في المستقبل ؟ هل ستغير بفعل الوعي الصحي أم فقط بما يسميه نوربرت إلياس بـ "الشعور بالحساسية الاجتماعية" ؟

ما الذي ستضيفه تجربة كوفيد 19 ومتحوراته إلى مصنفات تاريخ الأوبئة كأعمال وليام ماك نيل وجورج روزن ؟

هذه أسئلة من ضمن أسئلة أخرى لا يسمح المقام ببسطها كلها.

وكل الأجوبة الفعلية أو الممكنة في الوقت الراهن تسبقها أو تعقبها كل الحروف والكلمات والعبارات في كل اللغات التي تبث الشك وتزرع اللائقين من قبيل : قد وقد لا، وربما وربما لا، وهذا يتوقف على وغيرها.

صوتيات ورسوم تعكس لائقينا في المعنى وغموضا في الرؤيا وضبابية في الأفق.

وسوف أعود مرة أخرى إلى الاستعارة التي وظفتها في بداية هذا النص: صورة السفينة العملاقة التي كانت تشق عباب المحيط قبل أن يلحقها العطب وهي تحمل على ظهرها ملايين البشر، فعلاوة على توقف المحركات الرئيسية تعطلت أيضا كل أجهزة الإنذار والرادارات واختفت كل وسائل التصوية، les moyens de balisage، وأصبح الربابنة وملاحوهم ومن خلفهم كل الركاب جميعهم يبحرون على مرأى العين ومسمع الأذن naviguer à vue فقط، فكل الدول التي بدأت برفع الحجر الصحي تدريجيا أو تلك التي تتأهب لذلك كلها تتلمس خطاها بحذر شديد وهي تطأ حواشي اليابسة، مخافة أن تنزلق مجتمعاتها قبل اقتصاداتها نحو المجهول. ولذلك فإنها تبقى حسب تصريحات مسؤوليها مستعدة للرجوع إلى الحجر الصحي من جديد إذا اقتضت الضرورة ذلك.

ويتوقع بعض المتوقعين في توقعاتهم المتوقعة أو غير المتوقعة أن هذه الحالة الوبائية سوف تستمر إلى حدود سنة 2022 وفق ما يسمى بلغة العولمة stop and go strategy : أي : الركون إلى الحجر الصحي، ثم رفعه للرجوع إليه من جديد وفق فترات متقطعة لا متواصلة ولا مسترسلة.

وفي الأخير وليس الآخر، وبناء على ما سبق تفصيل القول فيه أو إيجازه، فإنني أود أن أذكر هنا أنني سعيت ما وسعني الجهد إلى ذلك إلى إنتاج معان تبقى بحكم طبيعتها نسبية لا تدعي البتة الوثوقية والشمول. فنحن جميعا نعيش اليوم في عالم يعرف وضعا متزايد التعقيد، عالم تجد مجتمعاته نفسها مثقلة، بأشكال متعددة ودرجات متفاوتة، بمختلف الأعباء الاقتصادية والضغوط الاجتماعية. ولقد اعتمدت فيما أوردته وخلصت إليه على تحليل المعطيات الموثوقة على صفحات منصات التواصل الاجتماعي، من منشورات ومسموعات لأهل العلم، وأهل السياسة، وعموم المرتادين، ملتصقا في ذلك وضع اليد على المفاتيح والأبواب لمستغلقات الإدراك والاستيعاب، مستعينا في ذلك بضبط التعليل واعتماد التأييد في التحليل بيد أنني لا أستبعد على نفسي الوقوع في المزالق والمثالب والعثرات.

و غاية الكلام عندي في هذا المقام عن هذه الغمة التي لا يجد أحد نفسه بمنأى فيها من السقم ما لم يتقيد بالحجر الصحي والمحاذير الضرورية، فإنني قائل إذا جاز حصر القول في عبارة تؤدي المطلوب من المعنى : إن العالم اليوم لا يجد نفسه أمام خطر معولم فقط، وإنما يواجه أيضا عولمة خطيرة وخطرة، عولمة أحسب أن مضارها أكثر من منافعها.

ببليوغرافيا

- Elias, N. (1978). *The Civilizing Process : The history of manners*. New York : Uriszen Books.
- McNeill, W.-H. (2010). *Plagues and Peoples*. Anchor.
- Rosen, G. (2015). *A History of Public Health*. New York : MD Publications.